أبعاد سؤال الوجود في فلسفة نيتشه

أ. رفاس نور الدين
قسم الفلسفة، جامعة معسكر

مقدمة:

لقد ارتبط الفكر الفلسفي منذ بداياته التاريخية الأولى بمشكلات الوجود، إذ يظهر من خلال محاورات أفلاطون ذلك الجدل القائم بين المفكرين الأوائل "القبل سقراطيين" في تحديد حقيقة الوجود ومفهومه، إذ أخذ السؤال عنه طابعا ميتافيزيقيا عاما كان يتشكل ضمن موضوعات الفيزيس، لأن جميع المفكرين الأوائل للوجود "طاليس المالطي، انكساغوراس، أنكسمانس، أنكسمندريس، بارمينيدس، هيرقليطس"، ربطوا بين الوجود والطبيعة، حيث لا فرق عندهم بين الاثنين، وبالتالي كانت تصوراتهم حول الوجود يتم التأسيس لها في موضوعات عالم الفيزيس أو الطبيعة، التي كانت في نظرهم تمثل حقيقة وماهية الوجود ذاته، ولكن مع ميلاد الطابع النظري للفكر الفلسفي مع اليونان تم لأول مرة في تاريخ الفكر الفلسفي مع كل من سقراط وأفلاطون وأرسطو بناء ميتافيزيقا خاصة للوجود تأخذ مشروعيتها من ذات المذهب الفلسفي الذي تم تأسيسه كإجابة عن كل سؤال يطرح حول ماهية أو أصل الوجود، أي تم التأسيس لنظرية خاصة في الوجود "نظرية الوجود" من خلال التصور والمفهوم الميتافيزيقي الذي ينظر للوجود من خلال الماهية التي تجيب عن سؤال الوجود خارج النطاق الحسي الفيزيسي الظاهر في عالم الموضوعات.

Résumé:

Le problème de l'existence a suscité beaucoup d'interrogation chez plusieurs anciens penseurs a fin de déterminer se vérité et sa signification. Nietzsche est parmi ces philosophies qui ont travaillé dans ce sens car il a présenté sa théorie sur l'existence en démontrant

que les philosophies classiques , y compris grecques et modernes étaient en quelques sortes loin de contenir une perceph'on originale et simple sur l'existence pour comprendre après cela que le but de Nietzsche n'était pas de se contentes de la critique pour la critique, mais plutôt l'acritique pour arriver a un de passement du problème et bien entendre a établi un refandement pour qu'on puisse comprendre sa façon de concevoir l'existence et ce qui y est inclus de nouveau si toutes les autres conceptions se sont trompées.

Il est possible de dire que cette tripartie a été adopté par Nietzsche comme étant une nouvelle philosophie qui apporte le développement dans l'arsenal du passé de la métaphysique comme étant la vérité cela a plutôt, contribuer a comprendre davantage l'existence puisque les questions philosophique ont été mises en dehors de la zone du dogme philosophique qui puisse ses définitions du résidu de la sphère de l'absolu et du vrai, pour nous arrêter au pont de l'existence vie loin des labyrinthes métaphysique

Dans ce contexte Nietzsche nous démontre que la structure que doit s'approprier l'homme « supérieur » est que son existence doit continuer a être orienté puisque l'homme tant attendu reste loin d'apparaitre. A partir de cela il nous est possible de comprendre que Nietzsche rejette l'idée de l'homme dialectique et de tuer un dieu et le faire substituer, puisque la nécessité obligé.

Il est ainsi clair que la philosophie de Nietzsche a pour principe : faire l'éloge à soi-même et de ses potentiels qui le cohabitent et qui puisent de son intérieur pour le dépassement de ce dernier (de soi-même).

مقدمة:

ولكن مع فلسفات الحداثة تم تجاوز ميتافيزيقا الوجود الكلاسيكية بتصور جديد للوجود، إذ ابتداء من اللحظة الديكارتية تم التأسيس لميتافيزيقا الوجود من خلال الذات المفكرة التي أصبحت تملك مشروعية تأسيس ذاتها ووجودها، حيث يظهر مع كل من كانط وهيجل وهوسرل النسق المعرفي الذي يجيب عن سؤال الوجود ببناء تصورات

ميتافيزيقية جديدية، ولكن مع ظهور فلاسفة الشك والارتياب "ماركس، نيتشه، فرويد" تم التشكيك في كل تلك البداهات والمسلمات التي ثبتها تاريخ الفلسفة في كل تصور ميتافيزيقي عن الوجود، حيث تم اعتبار كل من العمل وإرادة القوة واللاشعور كبديل لتلك التصورات الميتافيزيقية التي نظرت للوجود خارج المجال الحيوي للوجود الإنساني. وتعد الفلسفة النتشوية من بين أهم الفلسفات التي قدمت نقدا لاذعا للميتافيزيقا الكلاسيكية من خلال إحالة سؤال الوجود على أبعاد فلسفية جديدة لم يطلها تاريخ الفكر الفلسفي، ولكن ما هي الأبعاد الجديدة التي قدمها فريديريك نيتشه لسؤال الوجود؟ وهل استطاعت هذه الأبعاد أن تتجاوز التأسيس الميتافيزيقي لسؤال الوجود أم أنها بقيت أسيرة له؟

أولا: نيتشه ناقد لمفهوم الوجود في الفلسفات الكلاسيكية:

لقد ثبتت الفلسفات الكلاسيكية تصورا خاصا للوجود كان دائما يأخذ بالتصور المعرفي العقلاني المثالي والمتعالي منطلقا أساسيا له، ولكن هذا التصور أو هذا التنظير للوجود وجد له نقدا لاذعا من طرف الفيلسوف الألماني الشهير فريديرك نيتشه الذي يعد بحق أول المفكرين المابعد حداثيين الذين قوضوا مركزية النسق الفلسفي الغربي المتمحور حول ذاته، ولكن ما هي الانتقادات التي يوجهها نيتشه لنظرية الوجود عند الفلاسفة الكلاسيكيين؟ أو ما هي الاعتراضات التي انتقد من خلالها نيتشه الفلاسفة الكلاسيكيين في ما يخص نظرتهم للوجود؟

يبين تاريخ الفلسفة منذ أفلاطون إلى غاية كانط بأن هناك مسارا واحد كانت تتوجه إليه الفلسفة وهو محاولة بناء المذاهب والأنساق الكبرى التي تتمركز حول الميتافيزيقا، فقد بين أفلاطون من خلال محاوراته بأن الوجود الحقيقي لا يكمن في هذا العالم المحسوس الذي يخضع للتغير والصيرورة، ذلك أن هذا العالم أشبه بصورة للوهم والضلال لا يمكن أن تمدنا الحواس بيقين ثابت أو تصور حقيقي له[1]، ولهذا أكد بأن الوجود الذي يوجد على الحقيقة هو وجود مفارق لهذا العالم، وهو عالم المثل باعتباره رمزا للكمال والسعادة والخلود، لهذا العالم يحتوى في ذاته كما يبين أفلاطون جميع كمالات الوجود، ولذلك يعتبره أنموذجا أو مثالا، ومثال الخير هو أسمى هذه المثل.

من هنا بالضبط ينطلق نيتشه في مؤلفه "أفول الأصنام" مبينا تهافت التأسيس الميتافيزيقي لعالم المثل الأفلاطوني معتبرا بأن أفلاطون ليس فيلسوفا على الأصالة وإنما هو عميل للفلسفة[2]، بحكم إقحامه للطابع الماهوي والمطلق للوجود، فالوجود كما يرى نيتشه بعيد عن كل تلك الحوامل التي أسقطها عليه أفلاطون[3]، إذ حين يتكلم أفلاطون عن عالم المثل نجد وفق نيتشه وكأنه يمثل الحقيقة كامنة أمامنا، وهذا الأمر لا يوجد إلا في تصور أفلاطون فهو لم يبين كيف يتم تصور وجود مفارق لهذا العالم يحوي في ذاته أسمى معاني الوجود العليا.

إن نيتشه يتجاوز تمام هذه المفارقة ولا يعتبر أن هناك ثمة وجود أصيل وحقيقي يتجاوز هذا العالم، إذ كل ما هناك في نظره هو هذا العالم، أما ما يتجاوز ذلك فلا يمكن تقرير يقينا موضوعيا حوله، ومن هنا فإن كل التصورات التي نسقطها حول الوجود تنتفي بمجرد إسقاط القناع الذي كانت تتستر وراءه نظرية المثل الأفلاطونية وهو منهج الجدل الذي افترضه أفلاطون لمحاولة إيجاد تبرير منطقي لوجود عالم المثل في حين نجد بأن نيتشه يعتبر الجدل خضوعا قسريا لتصور لا يفسر لنا تماما كل ما يمكن تصوره عن الوجود، إن الوجود حسبه بعيد تماما عن كل التصورات التي يعقدها العقل حوله[4]، فالجدل هو ما يتم إسقاطه بصفة مسبقة كفرضية تبرر الانتقال من العالم المحسوس إلى عالم المثل، ولكن هذا الانتقال لا يبين لنا على وجه التحديد أن هناك حقيقة موضوعية/ واقعية في عالم المثل، إن إدعاء أفلاطون بصدق ويقينية عالم المثل عبر موضوعيتها، إدعاء باطل في نظر نيتشه، إذا لا يوجد إلا العالم المحسوس، والحقيقة لا يمكنها أن تتجاوز هذا العالم، أن هناك بالأحرى تصور واحد لوجود واحد هو هذا العالم الذي نحياه، فالوجود هو عالم الحياة[5].

ومن خلال تأكيد نيتشه لهذه اللازمة يرى بأن تاريخ الفلسفة أخذ من المعين الأفلاطوني، وما كان استئناف المسألة الميتافيزيقة في العصر الوسيط والمسائل اللاهوتية المرتبطة بها إلا محاولة إدخال للأفلاطونية في قلب العقيدة المسيحية[6]، هذا بعد التوفيق بين أفلاطون وأرسطو، فأضحينا نسمع عن المدرسة الأفلاطونية والأرسطية، وبالتالي لم يجد رجال الدين من منقذ سوى التأسي بمتاهات الفلسفة اليونانية للخروج بالمعتقد المسيحي إلى الإيمان وكذلك فعل أوغسطين وأبيلارد وتوما الإيكويني حينما بينوا علاقة النقل بالعقل، ويعد هذا الأمر في نظر نيتشه إدعاء زاد في استفحال محنة الفكر وبراءة الوجود، فلم نعد نرى

الحقيقة إلا بمنظر الدين أو العقل وكلاهما لا يعد مصدرا لليقين أو للحقيقة، بل هي مجرد إدعاءات[7]، لأنها تسكن الإنسان في عالم ليس هو إياه وتدعه عرضة للتيه والضلال، مادام أن وجوده يصادر ويلغي لصالح وجود لا نكلك عنه سوى التصور فقط، أو هو وجود مثالي صوريي أعلي من قدر النفس والروح وحط من قيمة الواقع والجسد.[8]

إن لحظة الحداثة الغربية لم تكن ببريئة في نظر نيتشه من النقد، ولم تكن الديكارتية التي إستئنفت تاريخ الحداثة الغربية سوى إعلان جديد لتكبيل إرادة الإنسان ومصادرتها لصالح الوعي والعقل والأنا والذات، هذه الافتراضات التي اعتقد ديكارت بأنها عالم الفلسفة المجهول، حينما راح في مؤلفه "التأملات" يؤسس لميتافيزيقا الذاتية التي تحددت في الكوجيتو، لم تكن أبدا لتصل إلى ما تدعيه، فهل وصل ديكارت كما ادعى إلى الحقيقة الأولى؟ وهل استطاع أن يجعل الإنسان سيد الطبيعة ومالكها من خلال الوعي والعقل؟

إن كل هته التساؤلات يجيب عنها نيتشه في كلمة واحدة "عجز الديكارتية"، هذا العجز يظهر في أن ديكارت كان متقنعا بقناع الدين من أجل الحماية وما كانت فلسفته تنبت النبات الأصيل في عالم خال من الوصاية مادام أن هدف ديكارت الأخير كما يعان في مؤلفه "المبادئ" هو أن لا يكون ضدا للدين المسيحي بل كما يدعي جاء لتقرير حقائق الإيمان فأي حقيقة يمكن أن ترتجي في فلسفة تنطلق من أولها إلى أخرها تحت خوف شديد ومبطن من اللاهوت المسيحي؟

إن اللحظة الديكارتية التي تحققت في فلسفات سبنوزا وليبنيتز وكانط وهيجل، لم تكن لتؤصل إدعائها، وإنما انفلتت لتؤسس فلسفات الذاتية الحديثة التي تشكلت كذاتية متعالية عند كانط وكروح مطلق عند هيجل، وبالتالي فإن براءة الوجود كانت تحتجب تحت كل تأسيس معرفي وإبيستيمى، ولهذا فإن كل الفلاسفة المحدثين انخرطوا في تكملة اللعبة الميتافيزيقية الكبرى التي تشكلت في بناء الأنساق والمذاهب التي تتجاوز وتتعالى وتضع نفسها كحقائق ثابتة ومطلقة[9].

ويتضح في النهاية حسب نيتشه بأن الفلسفات الكلاسيكية بما فيها اليونانية والوسيطية والحديثة كانت بعيدة بمعنى ما عن احتواء نظرة أصيلة وبسيطة عن الوجود[10]، ومن هنا نلمس بأن هدف نيتشه لم يكن النقد من أجل النقد وإنما كان النقد من أجل التجاوز وإعادة

التأسيس، ولكن كيف يتصور نيتشه الوجود؟ وبالعودة إلى أية تراتبية يدرج نيتشه الوجود إذا كانت كل التصورات الكلاسيكية قد أخطأت الهدف؟

ثانيا: الوجود / إرادة القوة / العود الأبدي "تقاطعات":

يثبت الفيلسوف الألماني "نيتشه" مفهومه للوجود انطلاقا من تصوره عن الإنسان، فهو لا يؤمن بماهية الإنسان من حيث هو كائن عارف، وإنما يرى بأن الإنسان كائن موجود ووجوده هو عين ماهيته المحايثة لتزمنه في العالم فلا يمكن حسب هذا أن نؤسس لمعقولية ثابتة أو لمثالية غارقة في التجريد، فالوجود هو ببساط الإطار الذي تتقاطع فيه إرادة الإنسان، من حيث هي قوة في لحظات مستمرة من الزمان وهذا هو معنى نيتشه عن العود الأبدي، ومن هنا يمكن أن نلمس نوعا من التواشج بين عدة معطيات داخل تراتبية فلسفة نيتشه تتحد انطلاقا من فهمه للوجد / إرادة القوة / العود الأبدي، لكن ما هي تجليات هذا التقاطعات في فلسفة نيتشه؟ وكيف يتجلى الوجود كمعطى مؤسس للإنسان من حيث هو إرادة قوة/ عود أبدي؟

بيد أن ما يسمح الإرادة بأن تجد هدفا أن تحدد اتجاها على الرغم من العودة الدائمة إنما هو الحضور الممكن للوجود عبر غاييه الفعلي، فالإرادة هي التمظهر الممكن لحضور/ غياب الوجود من خلال الصيرورة اللامتناهية لدورات الحياة الممكنة، لكن هذا الفهم لم تكن الفلسفة الإغريقية منذ سقراط على دراية به ولا هي فكرته، بل شهدنا وفق نيتشه أفولا داخل ليل الميتافيزيقا اليونانية، وهذا منذ سقراط[11].

ويظهر انحطاط الفلسفة بوضوح مع سقراط إن حددنا ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقا) بتمييز عالمين بالتعرض بين الجوهر والظاهر الصحيح والخاطئ المعقول والمحسوس ينبغي القول إن سقراط يخترع ما وراء الطبيعة، يجعل من الحياة شيئا يجب الحكم عليه قياسه وضع حدود له، ومن الفكر قياسا حدا تتم ممارسة باسم قيم عليا، الحقيقي الجميل الخير..."[12]، ويعني نيتشه أن الإنسان يتشبع أيضا حين يعمد وقد تحرر من الحاجة بعد الآن لسلطة خارجية إلى نهي نفسه بنفسه عما كان يحظر عليه ويحمل نفسه تنظيما وأثقالا[13].

إذ تسمى العلاقة بين القوة والقوة إرادة، لذلك ينبغي قبل كل شيء أن تتحاشى التغيرات المعكوسة بصدد مبدأ إرادة الاقتدار النيتشوي، فهذا المبدأ لا يعني على الأقل أن الإرادة تريد الاقتدار أو ترغب في السيطرة طالما يتم تفسير إرادة الاقتدار بمعنى الرغبة في السيطرة، إذ يجري جعلها تابعة بالضرورة لقيم سائدة هي وحدها القادرة على تحديد من يجب الاعتراف به. لأن الوجود تثبته الصيرورة يطرد من ذاته كل ما يناقض الإثبات كل أشكال العدمية ورد الفعل، الإحساس بالخطأ، الاضطغان...[14]، وهكذا يمكن أن تلتقي عند نيتشه إرادة القوة كوجود فاقد لذاته ومتحد مع العالم الذي تريد الإرادة أن تكونه، فمادامت تنزع إلى شيء غيرها فإنها لن تكون ذاتها أبدا، كما زعمت الحداثة الغربية وأثبتت أن إرادة الإنسان تحتوى كل شيء وتحيا كل شيء داخلها كشعور محايث للذات.

بل بالعكس من ذلك نجد نيتشه يشدد على تجاوز كل ترسبات الحداثة الميتافيزيقية والعدمية الغربية، فالإرادة النتشوية تجاوزت كل ما يمت إلى العالم المفكر فيه داخل الميتافيزيقا، إن الإرادة هي حركة الوجود ذاته في كل تمظهراته الحياتية، فلا يمكن القول أنها ميزة إنسانية بإنفراد، يثبت نيتشه فهمه للإرادة عبر التركيز على الوجود الذي يأخذ دلالته من العودة الدائمة لنفسه[15]، فإذا استحال كل فناء وكل زمان فلا يمكن الكلام عن قوة الإرادة ولكن مادام أن هناك تكرار أبدي لكل شيء للحياة ذاتها يعود في الزمان فإن الإرادة ذاتها هي التي تكتنف عمق الوجود، ومادام أن هذه الإرادة تتجلى في الموجود الإنساني أكثر من غيره من الموجودات فإن العودة الدائمة للنفسه ستتكرر في الإرادة الإنسانية بالذات، باعتبارها قوة تنزع إلى الوجود وتتحقق في الزمان المتكرر، ومن هنا فلا يمكن القول حسب نيتشه بمطلقية الزمان وأبديته الفيزيائية، وإنما الزمان هو ما يتكرر، وفي تكرارته هذه، تظل الحياة تعطي من نفسها إلى نفسها كل ما يدر عنها الاستمرار والتكرار إلى ما لا نهاية له وكل لحظة إلا ولها في المستقبل ما يتكرر منها نفسها وهكذا دواليك إلى ما لانهاية.

ولذا يمكن القول وبإختصار من خلال هذه القراءة الإستنتاجية بأن ثلاثية الوجود والعود الأبدي وإرادة القوة قد اتخذت عند نيتشه، فلسفة جديدة تأبى العيش في ترسبات

ماضي الميتافيزيقا على أنها الحقيقة، وإنما منحت فهما للوجود، يعيد ترتيب المشكلات الفلسفية خارج نطاق الدوغمائية الفلسفية النسقية التي تأخذ المفاهيم من داخل سياج المطلق والحقيقي واليقيني، لتقف عند الوجود/ الحياة، بعيدا عن متاهات الميتافيزيقا، وعن تصورات الوجود الكلية والمطلقة، وبذلك يجد نيتشه نفسه قد أسس لتيار جديد يمارس النقد الفلسفي من داخل متون ومدونات الخطاب الفلسفي التقليدي الذي كرس ميتافيزيقا الوجود في أشد المذاهب تعقدا، ولا أدل على ذلك من ما انتهت إليه الميتافيزيقا الكانطية والميتافيزيقا الهيجلية في محاولة تحميل الوجود بكل تلك الترسانات والأرامد المفاهيمية التي كبلت حرية الفكر وبراءة الوجود لقرون عديدة.

ثالثا: الإنسان الأعلى وتعدد القيم

لقد بحث الفلاسفة عن الأصل الأونطولوجي للوجود، فاختلفوا حول أسلوب تحقيق هذا المقصد، بيد أن هذا السؤال يأخذ مع نيتشه منزعا جينيالوجيا، فالأصل ليس الوجود بمختلف التسميات التي سمي بها على امتداد تاريخ الميتافيزيقا، وإنما هو في كيفية فهمنا له انطلاقا من تصور جديد لحقيقة الإنسان، وقد تصور نيتشه حقيقة هذا الإنسان من خلال نقده للأخطاء التي وقع فيها الفلاسفة القدماء في تحديدهم لمفهوم الإنسان، فالإنسان ليس هو الحيوان العاقل وفقط كما اعتقدت الميتافيزيقا الغربية، ولذلك يجب حسب نيتشه القضاء على هذا المفهوم وعلى كل تلك الإدعاءات التي تؤسس فهم الإنسان داخل الشمولية الميتافيزيقية، لنصل في نظر نيتشه الإنسان المتحرر من القيم، بل الإنسان الذي يعيد بناء قيم جديدة خارج المنظومة الميتافيزيقية الغربية، ولكن كيف تم ذلك؟ وما هي التصورات التي يسقطها نيتشه في تصوره للإنسان الأعلى وأية علاقة يمكن أن تربط بين هذا التصور والوجود؟

إن معارضة نيتشه للإنسان الحديث تأخذ معنى يدعوا كثيرا للتفكير حين يتلفظ بها فهم واحد كزرادشت في كل مكان تقريبا جرى إعطائها بكل براءة دلالة تضعها في تناقض مطلق مع القيم التي أثبتها شخص زرادشت[16]. إذ يحدد في مؤلفه "هكذا تكلم زارادشت" الصيغة التي يجب أن يكون عليها الإنسان الأعلى([17]) حيث يبقى وجوده مؤجلا، هو

الإنسان المنتظر وظهوره لا يزال بعيدا، ويمكن أن نفهم كل هذه المراهنة على أن نيتشه لم يعد يتحمل الإنسان الديالكتيكي[18]، أو لأن قتل الإله يحتاج إلى من يحل محله، كل الآلهة ماتوا ويريد نيتشه أن يحيي الإنسان الأعلى، إنه لا يسكن بعيدا عن الأرض، و لا ينفصل عن النوع الإنساني، فالإنسان هو الطريق إليه، وما عليه إلا عبور الهاوية، ليصبح موضوع إرادة القوة، من خارج خلفية ميتافيزيقية بلغت هيمنتها في الإنسان الحديث[19]، حيث اعتبر الإنسان الأعلى موضع هذه المساءلة وموضع قلب العدمية، إن قلب القيم السائدة لا يتنافى مع قلب التصور الميتافيزيقي للإنسان، الذي اعتبر منذ أرسطو حيوانا عاقلا، يتحول التفكير النيتشوي ضد هذا التصور في محاولة التسويغ لإنسان متحرر من قيم الإضغان، ومن ألواح الوصايا القديمة التي سنها العبيد ورجال الدين والكنائس[20].

لكن ما حال دون نيتشه و تجاوز نمط التفكير الميتافيزيقي، هو كونه لم يتحرر تماما من عادات التفكير بالقيم لقد توهم أنه بالإمكان على أي حال، إنقاذ بعض القيم من النزعة العدمية، لكن تجاوزه للائحة القيم القديمة والحديثة فإنه لم يلبث أن اقترح ضمنيا و كبديل عنها، قيما أخرى لا تخرج، و مهما قيل عنها، عن دائرة فلسفة القيم، أي عن ميدان الميتافيزيقا ونسيان الوجود، لقد بقي نيتشه يعين الوجود في كليته، ويفهمه من خلال إرادة القوة، كما حاول بدوره صياغة تصورات أخرى عن الحياة، وعن العالم، وعن الحرية، وعن الحقيقة وبالتالي اقترح تصورا جديدا لماهية الإنسان، يضاف إلى باقي التصورات القديمة، إن فلسفة نيتشه تظل إذن في نطاق الميتافيزيقا وإن كانت تعبر عن لحظة الانتقال من ميتافيزيقا الفكر إلى ميتافيزيقيا الحياة التي يشكل الإنسان الأعلى دلائلها المركزية و أبعادها الجوهرية[21].

إن فلسفة نيتشه إذن و بما هي ميتافيزيقيا الإرادة، إرادة القوة، تقوم على مبدأ امتداح الذات وتلك القوى المحايثة لها، تلك التي تقتلعها من الداخل، من أجل تجاوز ذاتها للاستحكام في الأرض بشكل كوني، و إن حامل مشعل هذه الفلسفة يحمل اسم زارادشت، هذا الفارسي الذي سيتجشم عناء تربية الإنسان الأعلى الذي سيمنح أشياء الأرض معناها وسيتجاوز الإنسان المسرف في إنسانيته، هكذا يبدوا حسب مارتن هيدغر

أن ماهية الفكر في ميتافيزيقا نيتشه لم تخرج عن صورة الإنسان كما حددتها الميتافيزيقا منذ أفلاطون، أي أن الفكر امتداد للإنسان بوصفه حيوانا ناطقا، أي ذاك الموجود الذي يعتبر الحقيقة امتدادا لقواه أو يشرع للحقيقة ويحسب كل شيء بناء على إرادة القوة[22].

لكن ولئن كان التأويل الهيدغري للفلسفة النيتشوية على هذا النحو فإنه لا يمكن أبدا نسيان ما سعى نيتشه إلى تجاوزه، لأنه يواجه حسب دولوز طريقة الديالكتيك السلبية، بمفهومه الخاص عن "الاختلاف المشروع"، إذ على الرغم أن نيتشه يريد أن يقطع من خلال طريقته كل ارتباط له أو للفلسفة بالديالكتيك، فإن دولوز يفضل أن يسمي طريقته "بالجدل الحقيقي[23]، وبالتالي فإن معنى فلسفة نيتشه كما يقول دولوز – هو كون التعدد والصيرورة والصدفة موضوع إثبات خالص[24]، وبهذا المعنى فإن فلسفة نيتشه هي "رسالة فرحة" وواجبها هو إعادة "تاج الضحك" للحياة وإيقاعها الراقص، أو هي فلسفة "النعم المتحمس"، الذى يقال لكل الحياة[25]، أو هي إذا استعملنا عبارات جيل دولوز "خفة ما يثبت ضد النافي وألعاب إرادة القوة ضد عمل الديالكتيك، وإثبات الإثبات ضد نفى النفي المشهور"[26].

ومن هنا حسب مارتن هيدغر فإن تجربة نيتشه الفكرية ومشروعه الفلسفي برمته، يجب قراءته باعتباره محاولة جادة لفهم العدمية بهدف تجاوزها من حيث هي أكبر وأعظم حدث عرفه الغرب الحديث، وتجد هذه المحاولة صيغتها الناضجة والمكتملة في مقولة "أفول المتعالي وخسوف المعاني الكبرى المقدسة"، وهي ليست صيغة إلحادية بالمفهوم الساذج للإلـحاد، ولكنها تعبّر عن تجربة تاريخية أساسية على ضوئها يجب أن تفهم الصيغة النيتشوية الأخرى التي يعلن فيها بأن فلسفته هي "أفلاطونية مقلوبة"[27]، وذلك لأنها سعت إلى قلب لوحة القيم التي ثبتها عالم المثل الأفلاطوني من خلال عكس نظامها الذي ساد طوال تاريخ الفكر الغربي الميتافيزيقي الحديث، والذي راحت على أساس منه تقام اليقينيات والمطلقات في مجال الأخلاق والجمال والعمل، عند ديكارت وكانط وهيجل وغيرهما كثر.

لكن السؤال المتعلق بما بعد الميتافيزيقا أو بما بعد الحداثة –كما يحلو للبعض تسميته– ليس سؤالا نظريا يتعلق ببلورة مبادئ نظرية تستخلص منها نتائج، سواء كانت بمثابة معايير أحكام حول العالم الموجود كما تفعل "النظرية النقدية"، أم كانت مبادئ عملية تسعى إلى تغييره

وتحويله[28]، على غرار الفلسفة الماركسية تجاوز الميتافيزيقا يقتضي إقامة علاقة جديدة مع تاريخ الفلسفة، ومع عالم الميتافيزيقا – بما هو في المنظور الجنيالوجي عالم الحداثة الغربية–، علاقة يجب أن يكون أساسها هو سوء التفاهم وغياب الأساس يقول نيتشه "إنها حقا لفكرة مرعبة أن تتخيل الوجود كما هو بدون معنى وبدون هدف، ولكنه يعود باستمرار كما كان، وكما هو كقدر يؤدي إلى العدم إنه العود الأبدي[29]، ويمكن أن نلمس صدى هذا الغياب في الأساس الذي يعود إليه الوجود في أصوله كذلك عند مارتن هيدغر، فهو كما رأينا سابقا منذ البدء يعلن في الوجود الزمان 1927 عن تجاوز الموثوقيات التي تتشبث بالأسس والأصول، وهذا ما دفعه في ما بعد إلى الإعلان عن أغراضه التفكيكية للميتافيزيقا الغربية من أجل تفكيك بناها وأعمدتها المترسبة حول فلسفات الأصول.

يمكن القول في الأخير بأن الفلسفة النتشوية أسست في تصورها للوجود أبعاد فلسفية جديدة، طبعت الفكر الفلسفي المابعد–حداثي بسمة النظر إلى الوجود براء من كل ماهية أو مطلقية أو يقين، ولهذا فقد فتح نيتشه مشروعية سؤال الوجود بعيدا عن الدوغمائية والمطلقية الميتافيزيقية اليونانية والحديثة، وبهذا يعتبر التصور النتشوي للوجود ذي أبعاد فلسفية أصيلة شقت طريق الفكر النقدي في الفلسفات المعاصرة، ومكمن هذه الأصالة هو بالضبط قدرتها على التخلص من بقيا الترسبات الميتافيزيقية التي أثقلت كاهل تاريخ الفلسفة لقرون عديدة ومنعته من الولوج إلى الكثير من المشكلات المتعلقة بجوهر الوجود الإنساني وعلاقته بالموجودات الأخرى، ومن هنا يمكن تأكيد مدى وجاهة الطرح النتشوي في فهمه للوجود خارج المنظومة الميتافيزيقية الكلاسيكية الغربية برمتها.

الهوامش:

[1]- فريديريك نيتشه، "أفول الأصنام"، ترجمة حسان بورقيبة وحسان الناجي، إفريقيا الشرق، ط1، 1996، ص18، ص19.

[2]- المصدر نفسه، ص20.

[3]- المصدر نفسه، ص27.

[4]- فريديريك نيتشه، "انسان مفرط في إنسانيته"، ترجمة، محمد الناجي، أفريقيا الشرق، بيروت لبنان، 2001، ص166.

[5]- فريدريك نيتشه، "العلم المرح"، ترجمة حسن بورورقيبة، محمد الناجي، إفريقيا الشرق، ط1، 1993، ص125.

[6]- فريديريك نيتشه، "هكذا تكلم زرادشت"، تر: فليكس فارس، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، (د-ط)، (د-س)، ص 69.

[7]- فريديريك نيتشه، "انسان مفرط في إنسانيته"، ص190.

[8]- رودولف شتاينر، "نيشته مكافحا ضد عصره"، تر: حسن صقر، سوريا، دمشق، ط1، 1998، ص، ص 76-77.

[9]- المصدر نفسه، ص203.

[10]- رودولف شتاينر، "نيشته مكافحا ضد عصره"، مرجع سابق، ص، ص، 53، 76.

[11]- رودولف شتاينر، "نيشته مكافحا ضد عصره"، مرجع سابق، ص 131.

[12]- جيل دولوز، "نيتشه والفلسفة"، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1،د-س، ص23.

[13]- المرجع نفسه، ص25.

[14]- المرجع نفسه، ص42.

[15]- رودولف شتاينر، "نيشته مكافحا ضد عصره"، مرجع سابق، ص 153.

[16]- جيل دولوز، "نيتشه والفلسفة"، مرجع سابق، ص122.

[16]- فريديريك نيتشه، "هكذا تكلم زرادشت"، مصدر سابق، ص 18.

[17]- جمال محمد أحمد سليمان، "مارتن هيدغر، الوجود والموجود"، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع "د-ط"، 2009، ص72.

[18]- الفريوي، علي الحبيب،" مارتن هيدغر نقد العقل الميتافيزيقي قراءة أنطولوجية للتراث الغربي"، دار اللفرابي بيروت لبنان، ط1، 2008، ص353

[19]- رودولف شتاينر، مرجع سابق، ص، ص 151-152

[20]- لكحل فيصل، "اشكالية تأسيس الدزاين Dasein في انطولوجيا مارتن هيدغر"، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والطباعة الجزائر، ط1، 2011، ص 123.

(21)- M.Heidegger : « Neitzsche », P 210.

(22)- جيل دولوز: نيتشه والفلسفة، مرجع سابق، ص 250، ص 251.

(23)-المرجع نفسه، ص252.

(24)-محمد أندلسي، "العدمية كإنحطاط والعدمية كأفق"، مقال موجود على شبكة الانترنيت: www.phlomaroc.com. أطلع عليه يوم: 2012/03/22، 11:43.

(25)- جيل دولوز: مصدر سابق، ص 252

(26)-. Heidegger , Nietzsche 2 , p144 , op.cit

(27)- محمد أندلسي، "العدمية كإنحطاط و العدمية كأفق"، مقال موجود على شبكة الانترنيت: www.phlomaroc.com.

(28)- Volonté de puissance , p44 , op.ci

المصادر والمراجع:

1- فريديريك نيتشه، "أفول الأصنام"، ترجمة حسان بورقيبة وحسان الناجي، إفريقيا الشرق، ط1، 1996

2- فريديريك نيتشه، "انسان مفرط في إنسانيته"، ترجمة، محمد الناجي، أفريقيا الشرق، بيروت لبنان، 2001

3- فريدريك نيتشه، "العلم المرح"، ترجمة حسن برورقيبة، محمد الناجي، إفريقيا الشرق، ط1، 1993

4- فريديريك نيتشه، "هكذا تكلم زرادشت"، تر: فليكس فارس، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، (د-ط)، (د-س)

5- رودولف شتاينر، "نيشته مكافحا ضد عصره"، تر: حسن صقر، سوريا، دمشق، ط1، 1998

6- جيل دولوز، "نيتشه والفلسفة"، تعريب أسامة الحاج، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط1،د-س

7- جمال محمد أحمد سليمان، "مارتن هيدغر، الوجود والموجود"، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع "د-ط"، 2009

8- الفريوي، علي الحبيب،" مارتن هيدغر نقد العقل الميتافيزيقي قراءة أنطولوجية للتراث الغربي"، دار اللفرابي بيروت لبنان، ط1، 2008

9-رودولف شتاينر، "نيشته مكافحا ضد عصره"، تر: حسن صقر، سوريا، دمشق، ط1، 1998

10- لكحل فيصل، "اشكالية تأسيس الدزاين Dasein في انطولوجيا مارتن هيدغر"، مؤسسة كنوز الحكمة للنشر والطباعة، الجزائر، ط1، 2011

11- محمد أندلسي، "العدمية كإنحطاط و العدمية كأفق"، مقال موجود على شبكة الانترنيت: www.phlomaroc.com.

-Nietzsche, (F),"La volonté de puissance",Trad:Généviere Bianquis, paris, Gallimard,194

-Heidegger, Martin- : "Nietzsche I, II", trad, Pierre Classowiki, Gallimard, Paris, 19